مزمار عربي واحد ...

للشاعرة الكندية جواندولين مكوين

ترجمة كمال العطار

هذه القصيدة التي ترجمتها عن الانكليزية هي للشاعرة الكندية جواندولين مكوين Gwendolyn Macewin التي وصفها بعض النقاد بوريثة الشاعر الارلندي « ييتس » . وتقوم اهمية القصيدة على انها تعكس وجهة نظر الغربي الذي يزور الشرق الاوسط للمرة الاولى دون ان يعرف قليلا او كثيرا عن حوادثه الدامية ، وفجأة يلسعه الجرح ويكتشف حقائق اخرى غير التي عرفها في صحف بلاده .

والبدوي الصغير الذي رأته الشاعرة يقود الخراف ما بعد بئر السبع ويعزف بلا انتظام على نايه هو في رأيها المسيح المنتظر، المخلّص من الحرب والدمار والتفرقة .

والقصيدة تفيض بالايمان وتؤكد في مقاطعها الاخيرة ان اولئك الذين يشكلون خطرا على الدولة المصطنعة سيصمدون الى ما لا نهاية ، وان اولئك الذين يحاولون ان يطمسوا معالم الحضارة الشرقية ، بتغيير انغامها وتحوير فنونها ، سيخفقون ، لان البدوي الصغير ما زال هناك يقود خرافه في بئر السبع ويعزف على نايه ..

(الترجمة)

في زحمة الاسواق العتيقه
وبين الاثواب الداكنه
كنت بريئة كبطاقة بريديه
وبسمتي المنفيه تلمع تحت
الشمس الناقدة العابسه .
احتسيت قهوة تركيه
في المدينة المجزأه
وبدون أية سخريه
فوق ضريح أسرة هيرودس الفارق .
خربشات حب على الجدار
(أحقا ؟ ... كان هذا ملجأ بريطانيا أيضا ؟
حسنا .. حسنا)
ورأيت قبر الحاخام عقيبه
ذاك الذي عدّته امشاط روما الحديديه
ومصطبة بيضاء ، باردة ، مخروطية
دفن فيها ابن ميمون
وعليها شموع ، في سافلها وعاليها
وبلدة تدعى لفته
أكلت افواه منازلها الغروب
وعربيًا ذا عينين زرقاوين
ووجه حادّ الملامح يقف
امام حجر أشقر
ورأيت السماء ذات العيون الزرق
فوق مدينة القدس
وافرام الرسام العجوز
مع صحن مثقل بالعنب
ومرسما مزوّقا في صفد
كان غاضبا ، وراح يرسم بنزق
ليل نهار على التلال الصوفيه
ورأيت ضريحا مقابيا لرجل
يدعى ياسون نحت بغزلان بلون الكراميلا ،
وتبعت عيني ، آلة التصوير
العدسات السائحه ، الفيلم الفضولي
الحجارة القديمة باتجاه السماء .

٢ -

الطائرات الورقيّة .. طائرات يافا الملونه
متعجرفه في السماء
رائحة حلوة ميتة قديمه
والبحر الطاووسي
يرفعهم
والشمس المظلّة الواقية اضحت
سرادق وعرشا بعيدا
ومشيت عبر بلاط زهريّ
وصدف معقّد ، وحجارة رمليه
وكل واحد
على الشاطىء في يافا
سأل عن الوقت
لكن الجدران كانت قد تداعت
جدران يافا
ورأيت البحر
من خلال ابواب عارية عديده ،
وسدّدت الطائرات الورقيّه عرضا
كأشارات باتجاه السماء
وتصايح صبية عرب عندما عثروا
على جماجم اسماك مبيضّه
كألف رأس ليونس
على الشاطىء .

٣

واتمهل الآن في مشيتي نحو كفرناحوم
عبر حديقة نخل وديكه
وأنا اقرأ كتيبا
حول اعاجيب المسيح
كسلسلة من المغامرات .. وأصلي
للاعمدة الواقفة بحزن
كصفائح تعود الى ما قبل التاريخ ..
ارفع السماء دائما ، آمين
عبر حديقة نخل وديكه
أتمهل الآن في مشيتي نحو كفرناحوم،
ويرسم
الراهب علامة الصليب
على حاجبي المبتل بالعرق
ويقدم لي تنورة صغيرة رماديه

كي تذكّر ركبتيّ الفربيتين العاريتين
بأن هذا المكان مقدس
وأذوب انا في المشهد .

٤

صفار يقفزون بالحبل خلف القوس الروماني
في عين كرم حيث يتدّرج الضوء
على التلال ذات المصاطب
هناك قطط كثيرة..وازهارواجراس
وثمة فتاة صغيرة تحمل رغيفا
من الخبز يصل الى ركبتيها ..
وكل الاطفال ، كلهم يأتون ويحدّقون
في آلــة تصويري
بالرغم من ان بعضهم يخشى
أن يقترب كثيرا .
وهناك.. خلف الصبية لافتة كتب عليهــا :
هنا ولد يوحنا المعمدان
ولكأني أرى
في وجه صبي صغير نظرة تقول :
ذاك الذي يأتي بعدي
سيبارك هذا الزمان وهذا المكان !

٥

عيون العمال بهضبة راحيل
مسمّرة في أظافرهــم
وهم يخدشون سلالات قديمة مــن الحجر
من تراه يقول لهم
ان ما يجدونه في القذارة الجربه
ليفوق أجر يومهم الزهيد
(خرائب ملوك يهوذا ، وطبقات من الموزاييك)
من تراه يقول لهم
لانهم هم التاريخ .. بينما نحن
غير الوارثين نبحث هنا
نتدافع كالسحليات
في الكنيسة البيزنطية المجاوره
نخربش في كل مكــان
علامات صغيرة
على الارض المقدسه
ناشدين أجرنا .

٦

لتصل الى القدس لا بد ان تخترق
ضلوعا من سيارات الجيب الميته
وأكاليل الحرب الصدئه التي تحفّ الطريق
وتكتشف ان المدينة تعيش
لانها تهدمت
وتجلس في الليل بالقرب
من الحدود ذات السياج الشائكه
ولا تمر سوى القطط والعناكيب
حتى القمر مجزّأ هنا
ووجها مريم والمسيح المهشمان
يرقبانك بسخرية بشعة من نوتردام
وبرج داوود
قبعة مخروطية الشكل في ضوء القمر
ومسجد عمــر
فقد كان هناك منذ الازل
اذا ما نسيتك يا قدس
فلتبن ذراعي اليمنى
قدسا أخــرى ..

٧

أرض لا أحد ليست سوى سقر
ومنها ينبعث ملح البياض الحوّاري
لبيوت دون لــون
لمدن ذات وجوه بيض
ذات عيون واسعه
وصغار يلعبــون
بالقرب من سقر
وهم فقط يلعبون ..لكنني أظل اسمع
طبول القرابين تدّق
لتخفت صياحهم
مثلما كانوا يضطجعون على أذرع موليخ
وتحت فمه النــاري
على العشب الاصفر
وتحت ظلّ جهنم المخيف
منتظرين السكّين المقدسة
كي تريق دمهم ذا الطعمة الحلوه

٨

في شارع يافــا
وفي القدس الجديده
المح شحاذا عراقيا ، أدعوه يوحنا
يتجنب العيون المتطفّله
ويرقب الارض
أراه يــرفض
نقود النسوة الشفوقات
وحتى دون ان يلقي نظره
لان الدراهم القذرة التي حشت كفّه
تسدّ قوته اليومي
لكم يحتجّ بوقار على حالته
لكم يستدير نحوهن احيانا بعنف
لاعنا ، وعيناه تشتعلان نارا
وبزّته ذات التفصيلة الامريكية العتيقه
تتدلى منه كصلاه

٩

« ماذا يجب علينا ان نفعل »
قال لي الرجل
« هو ان نتركهم معا ..
وبذلــك
فانهم لا يشكلون خطرا ..»
ولكني رأيت الاشجار
تنمو بالعرض
في مرج ابن عامر ،تواجه الجاذبيه
لحاؤها قويّ
ومشدود بالصبر
وأوراقها تتدافع نحو الاعلى
برقصة متباينه
ورأيت
نقودا لامعة
تعلو الجباه وكأنها تعكس
قيمة الجماجــم
(احبش القوس العربيّ بسرعه ... اضغطه بحجاره
أو اجعل التدوير تربيعا ..
اخط
بخفة عبر الموسيقى الشرقيه ..)
وهــذا
صبيّ بدويّ صغير يقود الخراف
وقت الغروب ما بعد بير السبع
ومزماره فوضى بين اصابعه
ورأيت الحشائش الهزيلة تحرّك
رؤوسها الطريّه
وسمعت الريح توقظ
الصحراء من نومها

نيويورك — ترجمة سمر العطار